بسم الله الرحمن الرحيم

ممن يستفيد من التجارة الحرة؟

١

أجاب عن هذا السؤال كاتب أمريكي لا ينقصه المرح ولا الحكمة المعيشية. اسمه "أورورك"، وجوابه: يستفيد الجميع. يقول في كتابه (وعنوانه "كلوا الأغنياء")[1]: السبب في غنى بقعة من العالم وفقر أخرى ليس الذكاء؛ فلا يوجد على وجه الأرض أكثر غباوة من "هولندا" أعني بقاع الأرض، وفي روسيا التي بعد فرع الشطرنج رياضة شعبية يمارسها أكثر المواطنين في مستوى الفقر. وليس وفرة الموارد الطبيعية؛ فإن أفريقيا الفقيرة تملك كنوز الذهب والبورانيوم والنفط، بينما تعدم هولندا الغنية كل ذلك إضافة إلى أنه نصف مساحتها مغطاة بمياه البحر، ومثل هولندا ليس لسويسرا نصيب من الموارد الطبيعية ولا خصب الدم، وأغلب أوروبا كذلك، ولم تصدر أحد فرق مستعمرات تجربة الأساطيل[2]. السبب واضح لو فتح الناس أعينهم عليه: حرية التجارة، وتعني الإقرار بحق الفرد في امتلاك ثمرة جهده والتصرف فيها بأي شكل يختاره دون تعد على حقوق الآخرين.

ولكن أكثر الناس لا يعقلون هذه الحقيقة، ولا يقنعون، ولا يعترفون بالحدود الفاصلة بين حقوقهم وحقوق غيرهم؛ فمنهم من يسرق من المال الخاص أو العام، ومن يغتصب أرض جاره أو الاستماع بجليسة أو شيء من حقوقه، ومنهم من يخون أمانة في وظيفته أو وصاية على اليتيم أو القريب أو المولى أو الزوجة، ومنهم من يضمر الحقد والحسد لأخيه الغني ويظن المطالبة بتوزيع الثروة. وقد رفضت الاشتراكيون ودعاة المساواة الاقتصادية مبدأ حرية التجارة بحجة أنها لا تحقق العدل، وأن السبب في وجود هوة سحيقة بين الأغلبية الفقيرة وبين الأقلية الغنية، وظنوا أنه الطريق الصحيح لردم هذه الهوة أن تؤخذ أموال الأغنياء وتعطى الفقراء. ولكن التجربة أثبتت فشل هذه النظرية في الدول الاشتراكية الأصلية وفي الدول المقلدة لها، وكانت النتيجة في كل حال: اختفاء العملية التجارية، وفقد حوافز العمل، بل فقد البضائع من الأسواق، لتحقق الحلم بامتلاك الأكثرية لأموال الأقلية. وهذا تمام تمام الفقر.

المصيبة يكن الفقر نفسه وليس الفرق بين غني وفقير، وعكس هذه الحقيقة ولد مصائب أخرى لا تقل سوءاً: الحقد والحسد والخصام والاقتتال والظلم

---

(١) على نمط الإشاعة الكاذبة عن ماري انطوانيت: (كلوا الكيك) عند فقد الخبز.

ومع أنه هذا الرأي مبني على الفكر واستقراء التاريخ ونتائج الواقع الحاضر، فقد لفت الكاتب الانتباه إلى أنه أهم الوصايا العشر في التوراة بعد النهي عن عبادة غير الله: النهي عن السرقة والاعتداء على الملكية الفردية وحسد الآخرين على ما يملكونه والطمع فيه.

والمسلم في غير حاجة إلى تحكيم الفكر أيًا كان مصدره أو وصفه، ولا إلى تحكيم نصوص اختلط فيها الوحي والفكر فلا يحسن التمييز فيها بين الطهر والنقاء، وبين ما يدين الله في كتابه وسنة رسوله وهو ما تعبده الله به وحده، لا يحيد عنه ولا يزيد عليه، ولا يقبل من غيره:

١) ذكر الله فيما حرم على عباده من البشر بعد الشرك بالله وعقوق الوالدين:
﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ﴾، وجاء بعد هذه الآية من سورة الأنعام: ﴿ وأن هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾، وتكرر الأمر بتجنب في سورة الإسراء.

٢) وقال الله تعالى: ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقًا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون ﴾.

٣) ولم يخلق الله عباده من البشر متساوين في خلقهم ولا أخلاقهم ولا أرزاقهم، في أجسامهم ولا عقولهم، في تدينهم ولا في دنياهم، وافتعال المساواة بينهم - في الرزق خاصة - محاولة للخروج عن سنة الله في خلقه مصورها البوار: قال الله تعالى: ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضًا سخريًا ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾، فكثرة المال وترف العيش وزينة الدنيا لا تصلح مقياسًا شرعيًا ولا عقليًا للخير والفضل والسعادة؛ قال الله تعالى: ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفًا من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبوابًا وسررًا عليها يتكئون وزخرفًا ﴾. وعلاج الفقر لا يتحقق بنظرية خيالية عن توزيع الثروة، ولا ضرورة لتحديد الملكية، وإنما يتحقق بسعي الفقير لكسب الرزق الحلال وطلب التوفيق والبركة من الله. وصلى الله وسلم على محمد وآله.
أو تيسيرها بغير ما شرع الله،